# وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال مخطوط -رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي-

د/فاطمة بلهواري‡

**تقديم:**

كثيرا ما دأب المغاربة من علماء وفقهاء وأدباء وشعراء عند شد الرحال إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وزيارة الحرمين الشريفين تدوين وتسجيل مشاهداتهم عبر هذا السفر الطويل والشاق، لتصبح تلك المادة المدونة في غاية الأهمية يعول عليها الباحث في مختلف التخصصات للاستفادة منها في سد الفراغ الذي يعترض البحث العلمي. وما رحلة أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي التي سنقدمها ضمن هذا المقال سوى إحدى النماذج عن ذلك. وعلى الرغم من أن النسخة المتوفرة مبتورة الآخر لعدم توفر النسخة الكاملة، غير أن المعلومات التي تحملها هذه النسخة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ بعض مناطق من الجنوب الغربي والشرقي للجزائر في ظل حكم العثمانيين له، إذ سلك هذا العالم في رحلته الحجية طريق هذه المناطق مسجلا مشاهداته للأحوال العامة لها مما يجعلها بحق إضافة جديدة لتجديد أدوات البحث حول تاريخ الجزائر.

**أولا: بيانات المخطوط**

1-عنوان المخطوط:" الحمد لله وحده بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. هذه رحلة العالم العلامة الشيخ سيدي أبي العباس سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي لتوجهه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام لا أحرمنا الله من ذلك بمنه وكرمه آمين.

2-المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي

3-مقدمة المخطوط: الحمد لله الذي جعل الرحلة إلى بيته الحرام ومقام حبيبه خاتم الأنبياء الكرام من أفضل ما يبتغى وأجل ما يرام، أما بعد فإني منذ يفعت وسموت عن الطفولة وارتفعت لم آفتا بحمد الله شديد التوقان إلى الحرمين الشريفين وما فيهما من المشاهد والمحاضر وإمتاع الفؤاد والنواظر بالاكتحال برؤية رياضهما النواضر وإحياء الأرواح بتنسم أرواحهما الطيبة ورحض طخا الجرائم باستمطار غيوثهما الصيب".

4-نهاية المخطوط: مبتورة (ناقصة)

5-الخاتمة: "ومنها حكم من لعن البارئ تبارك وتعالى فأجبت بأنه يقتل كفرا وهل بدون استتابة ولا نذرا عنه القتل توبته كمن سب النبي صلى الله عليه وسلم أو يستتاب كالمرتد قولان مشهوران كما في المختصر وكان الحامل

‡ قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

للمسائل على السؤال كلام الشامل الذي نقله الشيخ عبد الباقي الموهم أنه لا يجري في اللعن ما جرى في غيره من السب".

6- اللغة: فصيحة بليغة، وتوظيف لمفردات نادرة الاستعمال.

7-التعليقات: عليها تعليقات وحواش من خط المؤلف وأخرى باسم: محمد بن عبد الله بن عمر وكذا أبي عبد الله.

8-رقم النسخة: غير مفهرسة.

9-مصدر المخطوط: خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام – أدرار- الجزائر.

10-عدد الأوراق: 29 ورقة.

**ملاحظة:**

تجدر الإشارة إلى أن النسخة المعتمدة غير مضبوطة بالشكل، بل مبتورة الآخر وهي خالية من تاريخ الفراغ من النسخ واسم الناسخ. ولا توجد بها عناوين فرعية، بل إن عنوان الرحلة الرئيس " هذه رحلة العالم العلامة الشيخ سيدي أبي العباس سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي لتوجهه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام لا أحرمنا الله من ذلك بمنه وكرمه آمين" ويحتمل أنه عنوان موضوع من قبل الناسخ.

**ثانيا-التعريف بصاحب المخطوط**

**جوانب من سيرته**

هو العلامة أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن الرشيد بن محمد بن عبد العزيز بن علي بن محمد –فتحا- بن محمد –ضما- بن الإمام باز النوازل أبي إسحاق إبراهيم بن الهلالي السجلماي. فهو من أسرة اشتهرت بتوارثها للعلم أبا عن جد[1].

ولد بسجلماسة عام 1113هـ/1701م، ورحل إلى الحجاز بقصد الحج مرتين[2]. وتوفي بالزاوية الزينية حيث داره بها زاوية سيدي علي بن بوزينة بوادي المالح بتافيلالت يوم الثلاثاء 21 من ربيع الأول عام 1175هـ/1761م[3]. ويعتبر أحد أكابر فقهاء ومشاهير عصره ونسبته التي اشتهر بها تعود إلى جده إبراهيم بن هلال. ويروى أن السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي[4]، سأل لما ولى الحكم الفقيه عمر بن عبد الله الفاسي عن أكابر علماء العصر، فأجابه: الأحمدون الثلاثة يقصد أحمد الهلالي المترجم، وأحمد بن عبد الله الغربي الرباطي، وأحمد بن محمد الورزازي التطواني، وأيد هذه الشهادة الشيخ التاودي ابن سودة وآخرون من مشيخة علماء فاس كانوا حاضرين بالمجلس الذي وقع فيه السؤال"[5].

لا تسعف المصادر المتوفرة في التفصيل عن السيرة الذاتية لهذا العالم الجليل، وقد وقفت على تعريف له من تلميذه محمد بن الطيب القادري يقول فيه:"كان له اعتناء بالعلم وتحصيله، كثير العبادة مقتصرا على ما يعني، فلا

تراه إلاّ مطالعا أو مدرسا أو ذاكرا، وغالبا أحواله المطالعة أو التقييد، ولا نظير له في علماء زمنه زاهدا وورعا ودينا ومروءة ومحبة في أهل البيت والصالحين والعلماء وطلبة العلم والضعفاء والمساكين، حريصا على نوائب الخير وإهمال الفتن وبعيدا عن الرياسة والجاه والفضول"[6]. وقد عكس مضمون هذه الرحلة شخصية صاحبها العلمية ،حيث صيغت بلغة عالم متبحر في مختلف فنون العلم، الأدبية منها والشرعية.

**2-شيوخه**

تتلمذ أبو العباس أحمد الهلالي على ثلة من مشايخ المغرب والمشرق منذ نعومة أظافره، إلى أن صار من فطاحل علماء عصره في علم المنقول والمعقول، حيث بدأ تكوينه العلمي بمسقط رأسه سجلماسة فأخذ عن مجموعة هامة من الشيوخ المغاربة كقريبه أحمد الحبيب اللمطي الصديقي وهو عمدته، واليه ينتسب. وأحمد بن أبي القاسم الغنجاوي السجلماسي، لينتقل بعدها إلى الحاضرة فاس لمتابعة وإكمال قراءته بجامع القرويين، فأخذ عن أعيان شيوخها كأحمد بن مبارك اللمطي السجماسي، وأحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي ومحمد بن عبد السلام بناني ومحمد الجندوز ومحمد الكبير السرغيني، حيث كان يحضر مجلس هذا الشيخ في التفسير ولا يسأل عن شيء أصلا بل يقتصر على السماع منه.

وما زال أبو العباس أحمد الهلالي يجّد إلى أن بلغ المراد بين مصف علماء زمنه وحج مرتين كانت إحداها عام 1150هـ/ 1737م. ولقي في حجتيه جماعة من علماء مصر والحرمين الشرفين أخذ عن بعضهم، وأجازه بعض آخر منهم وذكر أسماءهم ومروياته عنهم في رحلته وفهارسه الثلاث كمحمد بن الطيب الصميلي الشرقي الفاسي نزيل المدينة المنورة، ومصطفى البكري الشامي دفين مصر، ومحمد بن غلبون الطرابلسي ومحمد بن حسن العجمي المكي، ومحمد بن سالم الحفناوي وعنه أخذ الحديث المسلسل بالأولوية المسمى عندهم بحديث الرحمة. والشهاب أحمد العجمي والشهاب احمد الملوي وغيرهم[7] .

**3-تلاميذه**

إن الباحث في تراث هذا العالم يسجل أنه من مشاهير فقهاء بلاد المغرب الأقصى، حيث برع في سائر العلوم الدينية واللغوية، فكان عالما محررا محققا مشاركا في علوم وفنون كثيرة من فقه وحديث ولغة وأدب والرحلة وتاريخ وأنساب، ومنطق وهندسة. كان كما عرفه عبد الحي الكتاني نقلا عن تلميذه الحضيكي في طبقاته أنه :" أعلم زمانه وأتقاهم وأزهدهم في الدنيا وأرغبهم في الآخرة وأحبهم لله ولأهل حزبه وأورعهم علىٌ فامة الدين وأشدهم تمسكا بالسنة المطهرة واتباعها"[8]. درس وأفتى بفاس ومدغرة وسجلماسة وجهات أخرى[9]، انتفع به وتخرج على يده عدد من الطلبة صاروا فيما بعد فقهاء وعلماء كمحمد بن الطيب القادري صاحب نشر المثاني، ومحمد

بن احمد صالح الزكزوتي وعبد الرحمن بن أحمد الحبيب السجلماسي ومحمد بن أحمد بن السيد السجلماسي الذي اختصر فهرسته[10].

## 4–مؤلفاته

يصعب حصر مؤلفات أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي وذلك لتوزعها بين ما هو مخطوط ومطبوع واعتبارا أيضا لما هو مفقود. وقد كافانا بعض الباحثين[11] في رصد مختلف إنتاجه وكتاباته، حيث ألف كتبا عديدة ومقيدات مفيدة منها:

– إضاءة الأدموس ورياضة الشموس، من إصلاح صاحب القاموس: عبارة عن تأليف صغير[12].

– المراهم في حكم فساد الدراهم: تم تأليفه عند ظهور العملة المغشوشة في زمنه في فيلالة.

– الزواهر الأفقية، على الجواهر المنطقية: كتاب في المنطق وهو شرح لأرجوزة شيخه عبد السلام بن الطيب القادري[13].

– النصيحة الهلالية: أرجوزة من 128 بيتا، جمع فيها ما بسطه المتصوفة من الحكم والآداب، معتمدا على مؤلفات أبي المكي وأبي حامد الغزالي وعمر السهروردي [14].

– نور البصر في شرح المختصر: يبدو أن هذا العمل لم يكمله لوفاته[15].

– ثبت: انفرد بذكره عبد الحي الكتاني وخير الدين الزركلي، فهو كبير في نحو كراسين، وقد ذكر فيه المؤلف مشيخته وأسانيد مروياته[16].

– ديوان الهلالي: ومنه الكبير والصغير وأما الكبير فجمعه سليمان بن محمد بن عبد الله الحوات الحسني الشفشاوني، كما رتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة.

– فهرست: ذكر الزركلي عند ترجمته للمؤلف أنه رآها في مجموع عند السيد إدريس الادريسي بفاس[17].

– رحلة الهلالي: نوه جل من ترجم للمؤلف بوجود رحلة مدونة له[18]، حيث عرف بها تلميذه محمد بن الطيب القادري باقتضاب شديد في قوله:"وألف في رحلتيه رحلة جليلة"[19]، غير أن هذه الرحلة عدت مما هو مفقود من مؤلفاته ولا يعرف أحد مكانا توجد بها[20]. وقد لمح ابن سودة ضمن دليله[21] أن للهلالي رحلة، لكن فتح حولها مجال الشك في صحة من اعتمده. وهذه الرحلة وصف فيها المؤلف ما شهده في حجتيه الأولى والثانية. وذكر فيها من لقي به من العلماء بمناطق متعددة من جنوب بلاد المغرب الأقصى وبعض المناطق الغربية والشرقية من الجنوب الصحراوي الجزائري وتونس وليبيا ومصر والحرمين الشريفين، وقد ذكر فيها مروياته عنهم وإجازات بعضهم له[22].

**ثالثا– محتوى المخطوط**

تضمن المخطوط –النسخة المتوفرة–وصف رحلة حجية لصاحبها أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، وقد تضاربت أراء الباحثين كما أسلفنا الذكر في صحة وجودها بين التأكيد والتشكيك حولها، نظرا لندرتها وضياعها، حيث ذكر الأستاذ عبد السلام بن سودة في "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" نقلا عن "الروضة المقصودة" لأبي الربيع سليمان الحوات:"وأعمل –الهلالي –الرحلة إلى الحجاز مرتين فحج واعتمر ولقي من أهل الحرمين كل شيخ معتبر، وجمع رحلته في مجلد مشتمل على فوائد لا تححد"[23].

في حين أكد الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور صحة وجودها معللا نقل مقتطفات منها ضمن الكتب والتقاييد، كوصف إقامته يومين في خزائن بني عبد الجبار في فجيج لم يستوف فيهما قراءة أوائل الكتب المحفوظة فيها[24]. وهذا مقطع ما ورد في هذا المخطوط بخصوص نزوله بهذه الخزانة:" وزرت في إقامتنا ضريح العلامة الشهير جامع الكتب العديدة وصاحب الأحوال الشديدة أبي محمد سيدي عبد الجبار وأولاده الأفاضل الكبار. وروضتهم متصلة بجامع قصر المعين ولقينا أحفادهم حفظهم الله وأدخلونا خزانة كتب أسلافهم رحمهم الله فرأيناها وتبركنا بها، وهي خزانة عظيمة، اشتملت على كثير من تآليف الأقدمين المهمة في كثير من الفنون وقد ظللت بها يومين وتصفحت نحو ثلث ما وجدت بها وأخبروني أن عندهم مفرقا في دورهم نحو ما رأيت بها"[25]. وعليه جل من ترجم له أكد على أن هذا العالم قام برحلة حجازية وقد دوّنها.

تزخر النسخة المتوفرة والمبتورة الآخر بمعلومات أساسية ودقيقة تخص المناطق الغربية والشرقية من الجنوب الصحراوي الجزائري خلال القرن18م، حيث أماطت اللثام عن مسائل تخص الوضعية السياسية والاقتصادية، وجوانب عن ظروف وعوائد المجتمع، وأحواله الفكرية والعمرانية، وإلى جانب وصف للأماكن المهمة كخزائن الكتب العلمية، والمساجد والمزارات والآبار، والأودية، إذ تضمن محتوى الرحلة المبتورة العناصر التالية:

1– تاريخ الرحلة: والتي تمت في يوم الخميس من 30 جمادى الآخرة من السنة الهجرية 1150هـ الموافق 6 أكتوبر1737م [26].

2– تدوين جملة من المسائل والفتاوى الفقهية، والمبنية على المرجعية المذهبية المالكية، تخص الحياة اليومية للمجتمع الصحراوي الجزائري.

3– وصف طريق الرحلة انطلاقا من الزاوية الزينية بإقليم سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى إلى مدينة توزر التونسية مرور بالمنطقة الصحراوية الجزائرية –حسب النسخة المعتمد عليها–. كما ورد ذكر عدد هام من أسماء المناطق الحضرية والبدوية على طول هذا الخط كمدينة سجلماسة، سهلة، البريكات ماء دلس واد الصفصاف وادي جير مسور، القنادسة، بشار، واكدة، زريف، المعرر، أم الياس، فيقيق، بوسمغون، الغاسول، عين ماضي، تاجمونت، دمر، أولاد جلال، بسكرة، سيدي عقبة، حامة، توزر.

ومما يلاحظ على هذا المسلك أنه لا يختلف كثيرا على ما اعتاد عليه مغاربة الجنوب عند عزمهم لأداء فريضة الحج، وكان طريقهم المعتاد، فيقيق –بوسمغون–الغسول –عين ماضي–تاجمونت–الأغواط –برج الغيران–سيدي خالد–بسكرة–سيدي عقبة– فتوزر[27]. وتتصدر الفائدة الإخبارية في وصف هذا الطريق الغربي والشرقي من الجنوب الصحراوي الجزائري خلال العصر الحديث، أنه كان يمثل مشاق ومخاطر سببها قسوة الطبيعة البالغة من جهة، وانعدام الأمن من جهة ثانية، مما يصبح معه المسافر معرضاً للموت في كل لحظة.

4- ذكر الحكم السياسي زمن تأليف الرحلة: ألقت هذه الرحلة لمحة عن الظرفية السياسية لدول المغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري /الثامن عشر الميلادي، فقد خضع المغرب الأقصى لحكم العلويين على عهد السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي الذي حكم البلاد ما بين 1134– 1204 هـ/ 1721– 1790م [28]. بينما خضعت كل من تونس والجزائر لسلطة الأتراك العثمانيين[29].

هذا إلى جانب أن بعض نصوص هذه الرحلة كشفت عن بروز قوة تصرف مشايخ المنطقة في أجزاء كبيرة مستقلة منها، مما أفصح عن ضعف الحكم المركزي. وقد صورت الرحلة جانبا عن هذا الوضع المترد كحديثه عن – بسكرة – "أول أعمال الترك أهل الجزائر ولهم فيها أحكام شديدة أضعف أهلها غاية مع زيادة إغارة عريف ذلك المكان فكادت لذلك تدخل في خبر كان مع أنها بلدة قل أن يجتمع في بلدة ما اجتمع فيها من أسباب العمارة من العمار الجاري وكثرة النخيل وشجر الزيتون وغيره واتساع المزارع وطيب الأرض ولكن إذا أضعف العامر فكيف تقوى العمارة حير الله حالهم"[30].

5- وصف الأحوال الاقتصادية: يعتبر الوصف الذي تضمنته هذه رحلة عن الأحوال الاقتصادية لبعض مناطق الصحراء الجزائرية، والتي جابها عند عبوره لطريق الحج شهادة حية لما تزخر به من معلومات، كثيرا ما وردت عند غيره من الرحالة[31] لهذه الحقبة التاريخية. فقد شد انتباهه جوانب كثيرة من الأنشطة المختلفة لساكنة تلك المناطق، في قوله:" وقد شهدت بصدق أحوالهم مشاهدة"[32].

**أ–القطاع الفلاحي**: كثيرا ما كان يهتم صاحب الرحلة بوصف النشاط الفلاحي لمختلف المناطق التي عبرها، كشهرتها بالحرث والزراعة ووفرة بعض المحاصيل الزراعية كإنتاج التمر والشعير وبعض الخضروات، كحديثه عن بلدة بوسمغون في قوله:"وفي هذه البلدة شعير جيد جدا، وأخبرونا أنهم يعالجونه في الحرث وما بعده،ويقاسون فيه جهدا، ثم ارتحلنا من هناك غدا وقد نالت دوابنا بكثرة الشعير عيشا رغدا" [33].

وقد عني صاحب الرحلة بمجال الري، إذ أولاه اهتماما خاصا، نظرا لأن الماء يشكل نقطة أساسية لسالك الطريق، وعليه فقد نقل لنا معلومات في غاية الأهمية عن أماكن توفر الماء وانعدامه، بل ذهب بعيدا حيث كثيرا ما كان يصف خصائصه من عذوبة وملوحة، كوصفه الدقيق لواد جير في قوله:" فمررنا بوادي جير بكرة، ولم ننتفع

بمائه الأجاج المستنكر أقبح به كأنما هو ملح أذيب بل هو أخبث لمرارة فيه تعذب الحوائل أي تعذيب وحق له فإن الملح المر متراكم حواليه والسبخة العظيمة ثاوية لديه وسرنا ذلك اليوم ومس الظمأ بعض القوم فنزلنا"[34].

كما شدت انتباه ظاهرة تزاوج عذوبة الماء وملوحته عند مروره بواد يعرف بدرمل وهو واد كبير كثير الحطب فيه مياه في مواضع بعضها ملح أجاج وبعضها عذب فرات سبحان القادر على ما يشاء"[35].

كما ألقى نظرة عن طرق ووسائل الري في بعض المناطق[36]. إلى جانب هذا سجل معلومات عن شهرة بعض المناطق بتربية أنواع الأنعام[37].

ب- **القطاع الصناعي**: على الرغم من أن المعلومات حول هذا المجال قليلة، وقد يعود ذلك إلى طبيعة الحياة البدوية في هذه الربوع، غير أن صاحب الرحلة قدم صورا عن شهرة بعض المناطق لبعض الصناعات والحرف التقليدية، كالصناعة النسيجية للبرانس[38] وصناعة أنواع من الأسلحة، والتي عرفت بالمدفع في قوله:"وخرج أهل أولاد جلال بعضهم بمدافعهم وقبائلهم موقدة لأن مدافع هذه النواحي لا زناد لها وإنما تظهر بنار في فتيلة وهذا يقال لهذا النوع من المدافع أبو فتيلة"[39].

ج -**القطاع التجاري**:لا غرابة أن يستطرد صاحب الرحلة الحديث عن ظاهرة البيع والشراء التي كانت تجرى مع أهالي المناطق التي كان يحل بها، إذ شكلت هذه الأخيرة مراكز عبور حيوية، إذ بدت بعض المناطق الغربية والشرقية من الجنوب الصحراوي الجزائري عبارة عن سوق للتبادل السلع والبضائع بين مختلف القوافل في ذهابها وإيابها، فكانت مدينة بسكرة محطة أساسية للحجاج السالكين الطريق الصحراوي، نظرا لما تتوفر عليه المدينة من حاجات وضروريات السفر من قمح ودقيق وسمن ولحوم ودواب، فهي كما وصفها صاحب الرحلة في قوله: "وهي بلدة حسنة في فضاء واسع لم تزاحمها جبال ولا أودية ونخلها مجتمع محيط بها كثيرة المزارع والنخل والخضر وبها شجر من الزيتون وغيره[40]. فأقمنا بها يومين لشراء المحتاج إلخ من دقيق وادام والدقيق لا يوجد إلا فيها لاختصاصها بوجود أرحاء الماء، فيها دون غيرها وتسوق أهلها مع الكرب وباعوا بقالا وهذا محل شراءها"[41]. وكان لرصد هذه الأحوال دور في الكشف عن ظروف المنطقة اقتصاديا خلال العصر الحديث.

وأفصح صاحب الرحلة عن أنواع السلع والبضائع المتبادل بين الجانبين، وأساليب البيع كالمقايضة في هذه الشهادة" وقد شهدت بصدق أحوالهم مشاهدة فإنهم يبيعون جلد البقرة بالخبزة ويبيعون المزود بكتيلة من التمر وقد ممرنا بهم عجالى ولو وقفنا معهم للبيع لربح الناس معهم...وليس عندهم دينار ولا درهم"[42].

كما اهتم أبو العباس بمسألة الأسعار عند حلول بمنطقة ما، فقليلا ما كان يتغاض عن ذكرها، حيث كان يرصد غلاءها ورخصها، كذكر غلاء الأسعار في مدينة الأغواط في قوله:"فنزلنا في مقابلة قرية الأغواط بعيدا منها وهي قرية كبيرة ذات نخل وشجر ووجدناها غالية الأسعار"[43]. وثمة قضايا تخص هذا المجال طرحت على صاحب هذه الرحلة لمعرفة الحكم الشرعي حولها[44].

6- ذكر جوانب من أحوال المجتمع: لقد شغلت الرحالة قضية الأمن في غالب المناطق التي عبرها عبر بعض مناطق صحراء الجزائر، مما جعله يطنب الحديث عنها في حالة توفرها أو خلافه وقد وصف بدقة تفشي هذه الظاهرة. كحديثه هذا:" فقد اتخذ أقوام ممن يمر بهم الركب سرقة أموال الحجاج تجارة عظيمة حتى أنهم على ما قيل يتداينون عليها كما يتداين الناس على غلاتهم نسل الله السلامة والعافية، فقد اتخذ أقوام ممن يمر بهم الركب سرقة أموال الحجاج تجارة عظيمة حتى أنهم على ما قيل يتداينون عليها كما يتداين الناس على غلاتهم نسل الله السلامة والعافية[45]". وكهذه الحالة:" فبتنا هناك قرب بوسمغون وكان في الركب رجل يحرس رحله بالليل فكأنه غلبته عيناه فأخذ سارق مدفعا من يده وسلبه برنسه وهرب فتبعوه، فرمى لهم البرنس ورماهم برصاصة فلم يصب أحد فصعد جبلا ونجا بالمدفع نسل الله العافية فيما نستقبله دينا ودنيا بمنه ثم ارتحلنا"[46].

وكذا قدّم الرحالة نماذج عدة عن مدن شاع فيها النهب والسرقة كمدينة الأغواط في قوله:"ولما رأى أهل الأغواط ركبنا استقلوه فخوفونا غاية من الأعراب التي أمامنا حتى قالوا لنا إما أن تصبروا هنا إلى أن يقدم الركب الفاسي فتجمتعوا معه إما أن ترجعوا من هنا بلا حج فإنا نخاف عليكم الأعراب لكثرة عددهم وشدة إذائتهم ولا تمكن النجاة منهم عادة"[47].

وعليه، كشفت هذه الرحلة عن حالة من الفوضى واللاأمن للعديد من مناطق بلاد الجنوب الجزائري خلال مرحلة الحكم العثماني، مما يقيم الحجة على غياب نفوذ السلطة الحاكمة في فرض وجودها لأجل ضبط سلامة المسالك.

ويبدو واضحا أن تدخلت عدة أسباب في تفشي ظاهرة النهب والسلب كالبؤس الشديد والذي تعود أسبابه إلى قسوة ظروف المنطقة اقتصاديا كالنقص الماء مما يترتب عنه نقص في الكلاء، إلى جانب سطو القبائل الرحل على أموال وأملاك الناس.

وعلى غرار هذه الوضعية المزرية التي عاشها المجتمع الصحراوي خلال هذه الحقبة التاريخية، نقل الرحالة فضائل هؤلاء السكان من حسن الضيافة والإستقبال والكرم الزائد.

7- ذكر الأحوال الثقافية: كثيرا ما وصفت المناطق بذكر مشاهير علماءها وفقهاءها وأوليائها من الرجال الصالحين، وأساليب ومستويات التعليم بها.

وهذه شهادة عن ما وصل إليه التعليم بعين ماضي في قوله:" وكنت قد سمعت أن طلبة العلم بها كثير فسألت أحد من تلقانا عن فقيهها ما اسمه فقال لي الفقهاء فيها كثيرون فسألته عن أكبرهم علما فقال لي كلهم كبراء ففهمنا أنه عامي لم يميز مراتبهم فسألته عن قاضيهم وقلت لعلهم لا يستقضون إلا أعلمهم فقال لي كلهم قضاة"[48] وذكر خزائنها ومدارسها، دون إغفال في وصف محتويات دور خزائنها كذكر خزانة الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أبي زيان، بالقنادسة وهذه شهادة الرحالة يقول فيها: وأدخلاني- أبو عبد الله سيدي

محمد بن محمد بن أبي زيان، أبو الحسن سيدي على بن محمد بن عبد الله الحاج وتلقيانا خزانة الكتب فظللت بها وبت ورأيت بها من الكتب جملة مرغوبا فيها"[49]

كما ألقت الرحلة الضوء على حال اللغة العربية بمناطق عديدة من الجنوب الصحراوي الجزائري، والتي بدت متدهورة في عدم الالتزام بالقواعد النحوية كذكره لهذا الشاعر في قوله:"وذكروا لي عنه- سيدي الحاج عيسى وهو شاعر هذه النواحي أنه يسيل بالشعر كالوادي إلاّ أنه لا يراعى قوانين العربية لأن علم النحو في هذه النواحي أغرب من العنقاء"[50].في حين أماطت هذه الرحلة عن انشغالات وحرص المجتمع الجزائري في التمسك بالشريعة الإسلامية، وذلك من خلال تقييد هذا الرحالة الجليل لجملة من مسائل فقه المعاملات التي طرحت عليه عند حلوله بين ظهرانه.كما وردت عنه إشارات عن النحل المذهبية، كاكتساح المالكية في غالبية هذه الربوع وانتشار مذهب الاباضية بمنطقة الزاب[51].

وحصيلة القول، أن هذه الرحلة تمثل قيمة توثيقية لتاريخ الجزائر في العصر الحديث نظرا للفائدة الإخبارية التي تزخر بها كوصفها للطريق الغربي والشرقي من الجنوب الصحراوي الجزائري، وما كان يمثله هذا الطريق خلال تلك الحقبة التاريخية من مشاق ومخاطر سببها قسوة الطبيعة البالغة من جهة، وتسلط الأعراب من جهة ثانية، مما ترتب عن هذه الأحوال انعدام الأمن، مما كان يعرض بحياة المسافر للموت في كل لحظة. كما تساهم هذه الرحلة في دراسة عوائد الساكنة ونمط معاشها، والتي قلما تتناولها مصادر التاريخ العام، بل كثيرا ما ظل تاريخ هذه الجهات طيا منسيا لا تهتم به أقلام المؤرخين. في حين لم يسعفنا الحظ كثيرا في معرفة بقية تفاصيل الأخبار عن المدن التونسية والليبية والمدن المشرقية وصولا لأرض الحجاز، والتي كانت المقصد الأساسي لصاحب هذه الرحلة، نظرا لعدم إتمامها وبدت مبتورة الآخر -حسب النسخة المعتمد عليها في هذه الدراسة- آملين في العثور على النسخة الكاملة لها مستقبلا لتعم الفائدة بدراسة تاريخ هذا الفضاء المغربي والمشرقي بمنظور شمولي.

## الهوامش

1- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق، احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2،1982 ج. 2، ص. 1099. محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق، محمد الحجي وأحمد التوفيق، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الرباط، 1986، ج. 4، ص. 143-144. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ط. 25، ج. 1، 151. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب بالعربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1957، ج. 1، ص. 173.

2- محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، ج. 4، ص. 145.

3 - المصدر نفسه، ج. 4، ص. 149. الزركلي، الأعلام، ج. 1، 151. عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات، ج2،ص 1099-1100.

4- محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي الذي حكم البلاد ما بين 1171 و 1204 هـ/ 1757 و 1790 م.

5- بنمنصور عبدالوهاب،الأعلام المغرب العربي،المطبعة الملكية،الرباط،1998،ج6،ص. 349.

6- محمد بن طيب القادري، نشر المثاني، ص. 149.

7- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المرجع السابق، ج2، 1100. محمد بن عمر عمر بن قاسم مخلوف، شجرة نور الزكية في طبقات المالكية ج1، ص. 511.

8 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

9- وردت مجموعة من مسائل ألقيت على أبي العباس الهلالي عند ما عبر المناطق الغربية والشرقية من الجنوب الصحراوي الجزائري، وقد أفتى حول العديد منها.

10 - محمد بن طيب عبد القادر، نشر المثاني، ج4، ص. 1175.

11- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص. 171.

12 - الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص. 151. بنمنصور، المرجع السابق، ج6، ص.350

13 - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني ص. 144.

14- بنمنصور، المرجع السابق، ج6، 352.

15- محمد بن الطيب القادري، المرجع السابق، ص. 144.

16 - فهرس الفهارس، ص. 1101.

17 - الأعلام، ج1، ص. 151. عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، 1997، ط1، ص. 216.

18 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها. عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ج2، ص. 1101.

19 - محمد بن الطيب القادري، المرجع السابق، ص. 145

20 - بنمنصور، المرجع السابق، ج6، ص. 351

21 - عبد السلام ابن سودة، المرجع السابق، ص. 216.

22 - بنمنصور، المرجع السابق، ج6، ص. 351

23 - عبد السلام ابن سودة، المرجع السابق، ص.337

24 – بنمنصور، المرجع السابق، ج6، ص ص. 351 .352

25 – الرحلة، ورقة 10.

26– نفسه، ورقة 1.

27– ينظر في رحلة أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر المشهور بالعياشي، ماء الموائد، مخطوط، الموقع الإلكتروني: مخطوطات الأزهر الشريف مصر عنوان موقع مخطوطات مكتبة الأزهر:http://www.alazharonline.or مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979،الجزائر، ص ص. 24-25

28– نفسه، ورقة 2 .

29– نفسه، ورقة 26.

30– نفسه، ورقة نفسها.

31– خصص أبو سالم العياشي صفحات عديدة من رحلته الحجازية والمشهورة بماء الموائد للحديث عن مناطق من صحراء الجزائر، والملفت للانتباه أن الطريق الذي سلكه داخل هذه المناطق مختلف قليلا عن الذي جابه العالم أبي العباس الهلالي في رحلته هذه.

32– الرحلة، ورقة 16.

33– وردت في مواطن عديدة من هذه الرحلة ورقة 14 –.23

34– نفسه، الورقة 8.

35– نفسه، الورقة 13 .

36– نفسه، الورقة،28 .

37– نفسه، الورقة 15–17.

38– نفسه، الورقة 18 .

39– نفسه، الورقة، 24 .

40– نفسه، الورقة 24–25.

41– نفسه، الورقة 25–26 .

42– نفسه، الورقة 16 .

43– نفسه، الورقة 18 .

44– نفسه، الورقة 16.

45– نفسه، الورقة 15 .

46– نفسه، الورقة 18–19

47– نفسه، الورقة 8 .

48 – نفسه، الورقة 17 .

50– نفسه، الورقة 18. .

49 نفسه، الورقة 08

51– نفسه، الورقة 21